مجلة دراسات بيت المقدس، 2018، 18(3):109-124
DOI: 10.31456/beytulmakdis.482380

عمارة الموصل في عهد نور الدين زنكي

فيان موفق النعيمي*

ملخص: تعد مدينة الموصل العراقية واحدة من أهم المدن العربية الإسلامية، إذ دخلت منذ القرن الأول الهجري ضمن الدولة العربية الإسلامية، وبدأت عمارتها بالاتساع والتطور عبر العصور حتى جاء العهد الزنكي وبالأخص فترة حكم السلطان نور الدين الزنكي، الذي قام بالاهتمام بمباني المدينة وسورها فعمر الكثير من مبانيها وبنى فيها مسجدا سمي باسمه. ويعد هذا البحث محاولة لإبراز دوره في عمارة المدينة. وقد تم اختيار الموضوع بالنظر لان الدراسات السابقة عن الموضوع كانت قد ركزت على الجوانب السياسية والعسكرية للأسرة الزنكية ونذكر منها على سبيل المثال دراسة الأستاذ الدكتور عماد الدين خليل عن "عماد الدين زنكي" او دراسة د. علي محمد الصلابي "نور الدين محمود زنكي شخصيته وعصره" وهذا ما يميز دراستنا عنها إذ تم التركيز أكثر على المنشآت المعمارية في عهده وفي مدينة الموصل تحديدا. وقد تم توظيف عدد من المصادر والمراجع ذات الصلة بالموضوع فضلا عن احتواء البحث على خريطة توضح مدى التوسع العمراني للمدينة في العهد الزنكي. وكذلك تم إرفاق عدد من المخططات التوضيحية.

الكلمات المفتاحية: الموصل، نور الدين زنكي، العمارة، الجامع النوري، القلعة، المدارس.

The Architecture of Mosul in the era of Nur al-Din Zengi

ABSTRACT: *The Iraqi city of Mosul is one of the most important cities in the Muslim and Arab worlds, since it became part of Muslim lands in 1st century AH/ 7th century CE. Its architecture expanded and evolved under the Muslims til the reign of the Zengids and especially the period of the reign of Sultan Nur al-Din Zengi, who paid much attention to the buildings of the city and its walls were many of its buildings were restored as well as constructing new ones such as the mosque named after him. This paper is an attempt to highlight his role in the city's architecture. The theme was chosen in view of previous studies which primarily had focused on the political and military aspects of the Zengi dynasty, such as the study of Prof. Dr. Imad Eddin Khalil about "Imad al-Din Zengi" and the study of Dr. Ali Muhammad al-Sallabi on "Nur al-Din Mahmoud Zengi: his personality and era". This is what distinguishes our study from previous works, as it emphasises on the architectural structures during his reign and the city of Mosul in particular. A number of relevant sources and references have been utilised and the paper includes a map showing the urbanisation of the city.*

KEYWORDS: Mosul, Nur al-Din Zengi, Architecture, Great Mosque of al-Nuri, Citadel, Madrasas.

* استاذ مساعد، كلية الاثار، جامعة الموصل – العراق، yasirhind@yahoo.com

التعريف بنور الدين زنكي

هو الملكُ العادلُ أبو القاسمِ نور الدين محمود بن عمادِ الدّين زَنْكِي (511-569هـ/1118-1174م) وهو ابن عماد الدين زنكي بن آق سنقر. يُلقَّب بالملك العادل، ومن ألقابه الأخرى ناصر أمير المؤمنين، تقيّ الملوك، ليث الإسلام، كما لُقِّب بنور الدين الشهيد رغم وفاته بسبب المرض. وهو الابن الثاني لعماد الدين زنكي. حكم حلب بعد وفاة والده، وقام بتوسيع إمارته بشكل تدريجي، كما ورث عن أبيه مشروع محاربة الصليبيين.[1]

شملت إمارته معظم الشام، وتصدى للحملة الصليبية الثانية، ثم قام بضم مصر لإمارته وإسقاط الفاطميين والخطبة للخليفة العباسي في مصر بعد أن أوقفها الفاطميون طويلا، وأوقف مذهبهم. وبذلك مهَّد الطريق أمام صلاح الدين الأيوبي لمحاربة الصليبيين وفتح القدس بعد أن توحّدت مصر والشام في دولة واحدة. تميَّز عهده بالعدل وتثبيت المذهب السنّي في بلاد الشام ومصر، كما قام بنشر التعليم والصحة في إماراته.

ينتسب نور الدين إلى السلاجقة الأتراك، فجدّه آق سُنقر بن إل ترغان يعود نسبه إلى قبيلة ساب يوب. كان جده مملوكًا للسلطان جلال الدولة ملك شاه، وكان عسكريًا وملاصقًا للسلطان.[2] وفي سنة 480هـ/1087م، أصدر السلطان السلجوقي جلال الدولة ملك شاه أمرًا بتعيين آق سنقر على حلب بسبب إخلاصه للسلطان أثناء حروبه، وخشية من أطماع أخيه تتش بن ألب أرسلان في بلاد الشام. كما أوصى سائر الأمراء بطاعته، فسار آق سنقر إلى حلب على رأس جيش كبير، وأقام فيها بعض الوقت ريثما يدبر أمورها ويصلح أحوالها، لكن بعد وفاة جلال الدولة ملك شاه حصل قتال بين تتش بن ألب أرسلان وآق سنقر انتهى بأسر وقتل آق سنقر.[3]

كان عمر عماد الدين زنكي 10 أعوام عند وفاة والده آق سنقر. مكث عماد الدين في حلب عامًا واحدًا عند مماليك وقادة أبيه، وما لبث أن استدعاه والي الموصل كربوقا بعد تسلمه الولاية ليقوم برعايته لإدراكه مكانة آق سنقر في نفوس التركمان، وما يكنونه له من ولاء وطاعة. وبقي عماد الدين مواليا لولاة الموصل الذين عينهم السلطان محمد بن ملكشاه، ورافقهم في معاركهم. ثم ولاه السلطان محمود بن محمد على ولاية الموصل سنة 521هـ/1127م، فاستطاع ضم جزيرة ابن عمر وإربل وسنجار والخابور ونصيبين وجزء من ديار بكر، وعبر الفرات فملك منبج وحلب وحماة وحمص وبعلبك، وبذلك نجح في التوسع بإمارته لتشمل مناطق شاسعة.[4]

تسلم إمارة الموصل قطب الدين زنكي بعد وفاة سيف الدين غازي سنة 554هـ. شارك مع نور الدين في معظم حروبه وأصبح يخطب له في إمارته طواعية دون كراهية. بعد وفاة قطب الدين تسلم

الإمارة ابنه سيف الدين غازي الثاني بدلا عن ابنه عماد الدين زنكي الثاني حسب وصية قطب الدين، وذلك بمساعدة الوزير فخر الدين عبد المسيح بمساعدة الخاتون والدة سيف الدين. استطاع فخر الدين أن يصبح المسيطر والمتحكم بالإمارة. ضاق هذا الأمر على نور الدين فتوجه إلى الموصل على رأس جيشه فضم الأراضي الخاضعة لإمارة الموصل في طريقه مثل الرقة ونصيبين وضرب الحصار على سنجار حتى سقطت وأعطاها لابن أخيه عماد الدين وبدأ بفرض حصار على الموصل حتى استجاب فخر الدين عبد المسيح بتسليم الموصل مشترطًا منحه إقطاعًا في أي مكان يراه نور الدين مناسبًا وببقاء سيف الدين غازي الثاني على إمارة الموصل. وافق نور الدين على ذلك وسيطر على الموصل في سنة 566هـ.

بدأ التوسع الحقيقي لمدينة الموصل بالعهد الاتابكي (521-660هـ/1127-1261م) فقد بنى نور الدين محمود الجامع النوري وسط المدينة من جهة الجنوب ، ومن حوله الأسواق والأحياء [5] وكثر العمران من بناء المدارس والمراقد والمزارات والحمامات والخانات وانشغلت منطقة قليعات ببناء القصور ودور المملكة والمعروفة بقاياها (قرى سراي) من عهد بدر الدين لؤلؤ[6] ، ومن هنا تتضح أهمية النهر بوصفه عاملاً بيئياً لتركز عمائر المدينة ومحلاتها بوصفه مورداً مائياً مهماً ومنفذاً يربط المدينة بالمدن المجاورة فضلا عن التأثير الواضح في مناخ المدينة المحلي.

وبعدها توسعت المدينة بعد أن ضاقت بساكنيها فشمل توسعها المناطق الخارجة عن أسوارها والتي عرفت بالأرباض. فالربض هو ما حول المدينة خارج عن كتلتها المبنية إذا كانت مسورة،[7] فأصبح للمدينة ربضان: الربض الأعلى المشغول بالمباني والجامع كالجامع الأموي والنوري، والربض الأسفل جنوب المدينة الذي بنى فيه مجاهد الدين قيماز جامعاً ومارستاناً ومدرسة على نهر دجلة عند باب الجسر.[8] ويرجع توسع المدينة باتجاه النهر الى استواء سطح الارض وارتفاعها عن مستوى النهر مما يقيها طبيعيا من الفيضانات عند حدوثها.

أولا: المباني الدفاعية

1. القلعة وأبراجها (باشطابيا)

ظهرت أهمية القلاع في مدينة الموصل، لكونها معقلا للجيش ومستودعا للذخيرة والأعتدة الحربية، وهي بموقعها في أعلى نقطة من المدينة على هضبة مرتفعة، لها أهمية كبيرة إذ تمكن المدافعون من مراقبة حدودها والإشراف على ما جاورها من طرق ومرافق مؤدية اليها.[9] وقد زار مدينة الموصل الرحالة ابن جبير وقال بوصفه لها: *"في أعلى البلد قلعة عظيمة قد رصّ بناؤها رصّا ينتظمها سور عتيق البنية مشيّد البروج يتصل بها دور السلطان وقد فصل بينهما وبين البلد شارع متسع من أعلى البلد إلى أسفله ودجلة شرقي البلد وهي متصلة بالسور"*.[10] وعليه فإن منطقة الاستعمال العسكري كانت في الجانب الشمال الشرقي من

المدينة ترتفع عن سطح البحر بنحو (240م) ولهذا الموضع أهمية دفاعية لأنه مكّن من فيها من الإشراف على المدينة والمنطقة المحيطة بها ولتؤدي أغراض المراقبة والدفاع على أفضل وأتم وجه.

على الرغم من أن برج القلعة الماثل الآن والمعروف (باشطابيا) يرجع إلى الحكم العثماني إلا أن بعض مدامكه السفلى ترجع إلى الحكم الأتابكي لأن حجارتها تماثل حجارة السور الذي يحمل تاريخ التجديد بعصر بدر الدين لؤلؤ (631-1233/657-1258م).[11] وقد استظهرت هيئة التقنيات الأثرية بجامعة الموصل الكثير من الممرات والغرف الأرضية من الجهة الجنوبية للقلعة فضلاً عن وجود غرف داخل البرج يتصل بعضها بالبعض بدهليز أفقي.[12]

وطبقاً لما جاء في النصوص التاريخية فقد اكتشف بابان للقلعة يعود تاريخهما على الأرجح إلى الحكم الأتابكي وهما باب السر وباب القلعة. وبخصوص باب القلعة فهو يؤدي من القلعة إلى باب الميدان،[13] ونرى أنه كان يقابل الغرب، فقد جاء عن *"محمد بن علي بختيار عندما ولاه نور الدين أبي الحارث أرسلان شاه بن مسعود بن مودود صاحب دزدارية قلعة الموصل، أنه قد توفي سنة (605هـ/1208م) بالموصل ودفن باتجاه باب الميدان غربي المدينة ظاهرها"*.[14]

أما عن باب السر، فهو يؤدي من القلعة إلى النهر، فعندما حاصر نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الموصل لما بلغه عصيان فخر الدين عبد المسيح واستبداده بابن أخيه سيف الدين غازي بن عماد الدين سنة (566هـ/1170م) حلف ألا يدخل القلعة إلا من باب السر،[15] لأنه من أحصن مواقعها ودخل منه كما أراد.

وعندما حاصر صلاح الدين الأيوبي الموصل (578هـ/1182م) كان مجاهد الدين قيماز يخرج في بعض الليالي جماعة من باب السر للقلعة ومعهم المشاعل فكان أحدهم يخرج من الباب وينزل إلى دجلة مما يلي عين كبريت ويطفئ المشعل.[16] وعليه فمن خلال النص يتبين أن الباب كان يؤدي إلى النهر.

2. السور

يعد السور بمنزلة الإطار الذي حدد شكل المدينة البيضوي، فمن المعلوم أن السور من التدابير الاحترازية المهمة التي استخدمتها المدن في العصور القديمة والإسلامية ويعد عنصرا دفاعياً مميزاً من حيث التصميم والبناء لما يؤمّنه من الحماية للمدينة أمام الغارات الخارجية المعادية والاضطرابات السياسية التي تتعرض لها من فترة لأخرى ولاسيما المدن التي تتمتع بأهمية مركزية واقتصادية مرموقة.[17] فقد اهتم الامويون (41-132هـ/637-749م) ببناء السور في عهد الوالي سعيد بن عبد الملك (65-89هـ/661-685م) إذ حفها بسور وأتمّ بناءَه مروان بن محمد،[18] ثم توالت عليه التجديدات ولاسيما في العهد الأتابكي.[19]

ففي حكم الدولة الأتابكية (521-660هـ/1127-1261م) اتخذ عماد الدين زنكي الموصل قاعدة لدولته إذ اهتم بعمارة المدينة وتحصينها، فعمر سورها وأحكمه فزاد فيه ما يقارب مثله، وعمر خندقها ويذكر ابن الاثير (ت 630هـ/1232م) أن أثره ظاهر إلى يومه، وعندما قصد الخليفة المسترشد بالله الموصل سنة (527هـ/1137م) وأراد انتزاعها من عماد الدين زنكي، عين عماد الدين زنكي نصير الدين أبا حقر بن يعقوب الملقب بالهمذاني (ت 539هـ/1141م) أكبر أعوانه والنائب عنه، فأحكم عمارة السور وحفر الخندق وعندما وصلها الخليفة وجدها منيعة فارتد عنها،[20] ما يدل على قوة السور ومناعته بعدما عمره فارتد عنها، *"فناداه منادي فقال له، هل تقدر أن تعمل سوراً يسد طريق القضاء النازل"*.[21]

وكجزء من منظومة السور العمارية فقد تخللته أبوب المدينة فهي دالة للجانب الهيكلي والوظيفي والجمالي ويعطي للمدينة خصوصية الداخل والخارج، ويرى من الناحية التاريخية أن عمارة أبواب المدن رافقت بناء المدن القديمة عندما دعت الضرورة الى إحاطتها بسور.[22]

فعندما حاصر نور الدين بن عماد الدين زنكي الموصل (566هـ/1160م) كان عبد المسيح يدور بين السورين، فأعلموه أن نور الدين دخل القلعة من باب السر.[23] وعليه فمن خلال هذه الرواية التاريخية يتضح أن المدينة كانت محاطة بسورين وأن فخر الدين عبد المسيح كان على الأغلب بالمنطقة المعروفة بالميدان، فقد بنى العقيليون السور وجدده السلاجقة وزاد عماد الدين ما يقارب مثله.

وفي عام (580هـ/1180م) زار المدينة الرحالة ابن جبير وذكر في وصفه للمدينة سورها بقوله: *"هذه المدينة عتيقة ضخمة حصينة فخمة قد طالت صحبتها للزمن فأخذت أهبة استعدادها لحوادث الفتن، فقد كادت أبراجها تلتقي انتظاماً لقرب مسافة بعضها من بعض وباطن الداخل منها بيوت بعضها على بعض مستديرة بجداره المطيف بالبلد كله كأنه قد تمكن فتحها فيه لغلظ بنيته وسعة وصفه للمقاتلة في هذه البيوت حرز وقاية وهي من المرافق الحربية"*.[24]

ثانيا: المساجد

يمثل المسجد الجامع في المدينة حجر الزاوية في العمارة الإسلامية والغاية الكبرى في التصميم العماري كما أنه المكان الذي يعبر فيه عن كيان العمارة الإسلامية وقدسيتها، وبشكل آخر هو مبنى له خصوصيته الدينية ووظيفته التعبدية إلى جانب وظائفه الأخرى المتعددة وذلك لشمولية تعاليم الدين الإسلامي لكل أنماط الحياة (الدينية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية والتربوية).[25]

وتعد المساجد والجوامع (المساجد الجامعة) من المباني الدينية التي دأب العرب المسلمون على إنشائها عند فتحهم للمدن الإسلامية. وقد راعى العرب قبل تخطيطهم للمساجد أن يكون موقعها وسط العمران وأن يبنى إلى جانبها دار أو مقر الخليفة يعرف بـ"دار الإمارة"، نظرًا إلى أن المسجد مرتبط

بالسلطة الدنيوية فضلاً عن كونه مركزاً تعليميًّا في العصر الإسلامي،[26] ومن ثم توزع خطط الأهالي من حولهما من محلات وأحياء ودروب وأزقة.

ومدينة الموصل اشتهرت بوجود مساجد جامعة أقيمت خلال مدد مختلفة، فقد بنى العرب المسلمون إبان تحريرهم لمدينة الموصل أول مسجد جامع كان يعرف بـ "المسجد الجامع". وقد توارت عليه أدوار عمارية غيرت الكثير من معالمه عبر العصور الإسلامية، ولابد أنه اتخذ التخطيط الذي كان سائداً في المساجد خلال العصور الإسلامية الأولى والتي اتسمت ببساطة البناء المتألف من صحن مكشوف تحيط به أورقة أكبرها رواق القبلة وفيها المحراب وعلى يمينه المنبر.[27]

وبعد أن انتاب مدينة الموصل توسع في العمران والبناء وتزايد هجرة القبائل ظهرت الحاجة ملحة إلى بناء مساجد جامعة أخرى لتكفي للأعداد الهائلة من المصلين، فبنى نور الدين محمود (566هـ/1170م) الجامع النوري، وبنى مجاهد الدين قيماز (572هـ/1176م) جامعًا آخر في ربض المدينة الأسفل لخروج الناس إلى الأرباض عرف بالجامع المجاهدي (الخضر حالياً).[28] وهو ثاني جامع بني بعد المسجد الجامع (الأموي) وأول جامع في العهد الأتابكي سمي باسم بانيه وهو الملك الأتابكي نور الدين محمود زنكي مؤسس الدولة الأتابكية وهو أكبر الجوامع وأشهرها لذا غلبت عليه تسمية الجامع الكبير.[29]

وكانت المنطقة المختارة منطقة متدهورة ومتروكة وخربة، وقد أشار الشيخ معين الدولة عمر بن محمد الملاّ إلى السلطان نور الدين محمود، بأن يضيف إليها أرض الحوانيت والدور، وقد اشتريت من أصحابها ليقام في موضعها الجامع النوري فتمّ ذلك وكان غاية في الحسن والإتقان، ابتدأ ببنائه سنة (566هـ/1170م) وفرغ منه سنة (568هـ/1172م)،[30] ونظرا لسعته وعظمة بنائه أطلق عليه (الجامع الكبير)،[31] أما الرحالة ابن جبير الذي زار الموصل فقد ذكره بـ "الجامع الجديد" تمييزا له عن الجامع العتيق (الأموي).[32] أمر ببناء الجامع نور الدين محمود سنة (566هـ/1171م) عندما قدم من الشام إلى مدينة الموصل لتنظيم شؤونها ورفع المظالم والضرائب عن أهلها في مدة حكم أخيه سيف الدين غازي الثاني بن قطب الدين مودود (565هـ/1169م) ووزيره فخر الدين عبد المسيح الذي كان مستبدا بأمور البلد، وقد لاحظ نور الدين محمود عند مجيئه توسع المدينة وزيادة عدد السكان وضيق المسجد الجامع بالمصلين، فقرر بناء جامع آخر و أوكل أمر بنائه إلى شيخه معين الدولة عمر الملا، ثم قفل راجعا إلى الشام.

وقد أشار إليه الشيخ عمر الملا على أرض الجامع فذهب نور الدين بنفسه وعاين أرض الجامع فصعد منارة مسجد "أبي الحاضر" فرأى خربة وسط الأسواق، فأمر شيخه ببناء جامع وأن يضيف له أرض الحوانيت والدور بعد شرائها من أصحابها بأوفر الأثمان وتم ذلك وفرغ من بنائه (568هـ/1172م) [33]وكان غاية في الحسن والإتقان وصلى به نور الدين محمود (568هـ/1172م) يوم الجمعة.[34] ولعل بناء

الجامع وسط المدينة من جهة الغرب إبان تلك المدة يدل على توسع المدينة في القرن (السادس للهجرة/ الثاني عشر للميلاد). هذا ويعد الجامع النوري ذا قيمة حضارية لا يزال يحتفظ بالكثير من المعالم المعمارية والزخرفية، العائدة لتلك المدة والتي عكست نمط البناء والتخطيط الذي سارت عليه الجوامع في ما بعد، فقد غاير في تخطيطه الجوامع التي كانت في العصر الأموي ومنها المسجد الجامع.

أما بالنسبة إلى تخطيط وبناء تلك المساجد فلا يمكن تحديد هويته فقد مرّ على تلك المباني أدوار عمارية مختلفة غيرت الكثير من المعالم الأصلية للبناء، هذا وإن كل ما وصلنا من كتب التاريخ والتراجم لا يسلط الضوء الكافي على الجوانب التي تهم الباحث في تخطيط وبناء مثل تلك المباني، وبصورة عامة فقد اختلف تخطيط المساجد الجامعة في العصر الراشدي والأموي عن العصور العباسية التالية، إذ اتسم التخطيط بوجود المصلى المتألف من بيت صلاة وصحن واسكوبين موازيين لجدار القبلة تتعامد عليها بلاطة معترضة فضلاً عن المجندات.[35] وتخطيط هذا الجامع يقتصر على بيت للصلاة وصحن تنعدم فيه الأروقة الجانبية (المجنبات والمؤخرة) وهو مخالف لتخطيط الجوامع التي تعود للعصر الأموي (كالجامع الأموي).

وبناء الجامع يتكون من اسكوبين، اسكوب عريض على طول جدار القبلة، واسكوب ضيق مواز له. ويفصل بين الأسكوبين أساطين رخامية. كما وضم الجامع مصلى شتويًّا ومصلى صيفيًّا، فضلا عن محراب تغطيه قبة قائمة على المربعة تضم طاقات ركنية تعد عنصرًا عماريًّا وزخرفيًّا للانتقال من القاعدة المثمنة إلى الدائرية.[36] ومن عناصره المعمارية التي تعود لعهد بنائه الأول ثلاثة أعمدة أحدها في الجانب الأيمن للمنبر والثاني في الجانب الأيسر للمحراب، والثالث يفصل بينهما وهي ذات أبدان مثمنة خالية القواعد وتيجان مكعبة.[37]

هذا وكان للجامع نافورة ماء بهيئة قبة بداخلها خصة رخام مثمنة مرتفعة على سارية رخام يخرج الماء منها بقوة،[38] كما وعرف الجامع بمئذنته الحدباء،[39] المشهورة في العالم الإسلامي والمائلة نحو الشرق محمولة على قاعدة منشورية ذات زخارف مقسمة إلى سبع طبقات تفرز بعضها عن البعض أفاريز ذات نقوش مختلفة بزخارفها الآجرية.[40] أما مأذنة الجامع (الحدباء) فهي تقع في الركن الشمالي الغربي منه متصلة بجدرانه ويظهر أنه الركن الذي تقع فيه أغلب المآذن العراقية السابقة واللاحقة وهي من المآذن النفيسة في العالم العربي الإسلامي،[41] من حيث الضخامة والارتفاع البالغ (45,49 م) ووجود سلمين بداخلها وتغطيها بالكامل بالوحدات الزخرفية باستثناء القسم الأسفل من قاعدتها فالقاعدة مكعبة موشورية يبلغ ارتفاعها (19م) يعلوها البدن الأسطواني وقد ساد هذا الطراز بعد ذلك بصورة عامة حتى صار طابع المآذن العراقية المميزة بأبدانها الأسطوانية ويبدو أن السلمين المزدوجين يبدأ أحدهما من القاعدة

المكعبة والآخر من البدن الأسطواني لا يلتقيان إلا في أعلى الحوض، وتلك ظاهرة تنبه اليها المعمار لتخفيف ثقل المأذنة على القاعدة فضلا عن الفتحات التي تخللتها ولشد البناء نحو المركز.

ولابد لنا ونحن نتحدث عن هذه المأذنة الفريدة من أن نشير الى ظاهرة انحنائها نحو الشرق، والغريب في الأمر أن من زار المدينة من الرحالة العرب والأوربيين لم يشيروا الى ميلان المأذنة ومن هنا لا يمكن البت بأمر حدوث ذلك الانحناء أهو يعود الى عهد البناء الأول أم إلى الفترات اللاحقة، ومن الجدير بالذكر أن مادة الآجر ومواد الجص الرابطة التي تتخللها تختلف من حيث التمدد والتقلص والجفاف من جهاتها المختلفة ولاسيما من جهتي الشرق والغرب وقد امتازت معظم المآذن الآجرية في المدينة بميلانها نحو الشرق على غرار ميل المأذنة الحدباء.[42]

وفي حوادث سنة (146هـ/763م) ذكر مسجد إسماعيل بن علي الذي يقع في الأسواق والذي يعرف بأبي الحاضر[43]. ولهذا يتضح لنا بأن المسجد من المساجد التي تعود إلى العصر العباسي وبقي ذكره حتى الحكم الأتابكي ففي حوادث سنة (566هـ/1170م) عند بناء نور الدين محمود بن عماد الدين الجامع النوري *"فركب هو بنفسه، وصعد منارة مسجد أبي الحاضر"*.[44] لذا يتضح بأن المسجد بقي موجودا حتى الحكم الأتابكي وأضيفت له منارة ويرجح الديوه جي أن بقايا المسجد القديم تعرف اليوم بمسجد الشالجي.[45] وعليه يمكن القول بأن المسجد يقع في المنطقة المحصورة بين محلة الجامع النوري ومحلة شهر سوق.

ثالثا: منشآت أخرى

1. مدرسة أم الملك الصالح

يأتي عهد الدولة الأتابكية وتشجيع ملوكهم للعلم والعلماء وتأسيس دور العلم فصارت الموصل مركزا علميا يقصدها الطلاب فأغدقوا عليها الأموال واختاروا أفضل المواضع على نهر دجلة، فيصف ابن جبير المدارس بقوله: *"وفي المدينة مدارس للعلم نحو الست أو أزيد على دجلة، فتلوح كأنها القصور المشرفة"*،[46] لجمال بنائها وضخامته فتوافد الكثير من العلماء للنهل من علمها. وهي دار، أوقفتها، أم الملك الصالح، وقد حدد ابن الأثير موقع المدرسة في الجهة الغربية من الميدان أمام دور المملكة، وأم الملك الصالح هي زوجة نور الدين محمود بن عماد الدين زنكي الذي حكم بعد وفاة والده (569هـ/1173م).[47] وعليه فهي من المدارس المندثرة التي ربما كان موقعها بالقرب من مزار الإمام عبد الرحمن.

2. سوق الخواصين

ونتيجة للاستقرار السياسي والاقتصادي في العهد الأتابكي ولا سيما بعد أن توسعت المدينة عمرانيا نحو الجنوب وبناء الجامع النوري انتقلت الأسواق حوله أي إنها بقيتْ ملازمة للمسجد الجامع. فيصف ابن

جبير (580هـ/1184م) أثناء زيارته للمدينة أن لها ربضين فيهما المساجد والحمامات والخانات والأسواق وشمل الربض الأسفل قيسارية للتجار تعود لمجاهد الدين قيماز بالقرب من مارستانه وجامعه كأنها الخان العظيم تنغلق عليها أبواب من حديد وتحف بها دكاكين وبيوت.[48]

لم تشر المصادر التاريخية إلى موقع السوق، إلا أن تسميته تشير إلى تخصصه في صناعة الخوص من سلال وغيرها ولعله أنشئ بعد توسع المدينة نحو الجنوب إذ أورد ابن خلكان عند وفاة نور الدين محمود أنه *"دفن بالقلعة بدمشق ونقل إلى مدرسته التي أنشأها بسوق الخواصين بالموصل"* .[49]

الخاتمة

استغل الموقع الاستراتيجي للمدينة في عملية تحصينها عسكريا ودفاعيا، فقد شهد سور المدينة توسعات عدة وإضافات عبر العصور المختلفة لكي يتلاءم وتوسع المدينة وتكامل نسيجها العمراني. ومن الملاحظ أن قمة ما وصل إليه من توسع كان في الحكم الأتابكي هذا فضلا عن كونه سوراً منيعاً ضد الهجمات المعادية ومن خلال ما ورد في النصوص التاريخية فان السلاجقة هم من اهتموا بتحصين السور وتقويته لكي يحافظوا على حكمهم في المدينة. وهنا أفادت النصوص التاريخية في الكشف عن الباب الغربي (باب الجديد) الذي فتحه عز الدين مسعود والذي ينسب خطأ من قبل الباحثين والعامة بكونه باب العراق ولم يحددوا موقعه الصحيح في السور.

وهكذا يتضح لنا حجم العمران والبنيان الذي وصلت اليه مدينة الموصل إبان العهد الزنكي وبالأخص في عهد نور الدين الذي أولى المدينة اهتماما بالغا فقد شهد سور المدينة توسعات عدة وإضافات عبر العصور المختلفة لكي يتلاءم وتوسع المدينة وتكامل نسيجها العمراني. ومن الملاحظ ان قمة ما وصل إليه من توسع كان في الحكم الأتابكي. كما يظهر أن أهم ما ميز عمائر آل زنكي في الموصل هو الاهتمام بالجانب الديني والتعليمي فضلا عن الاعتماد على مادة الآجر والطابوق المرصف في البناء.

خارطة مدينة الموصل داخل سورها

صور 1 / قلعة باشطابيا

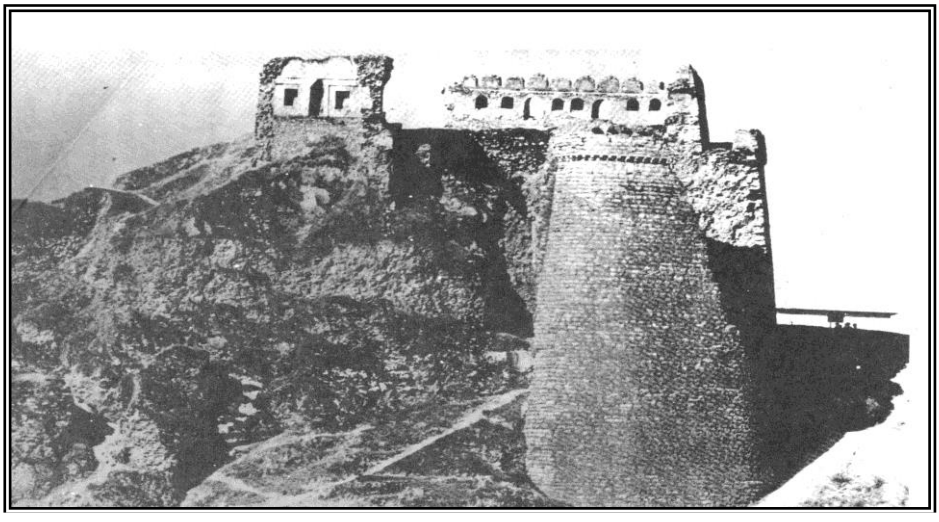

صورة 2 / مئذنة الجامع النوري

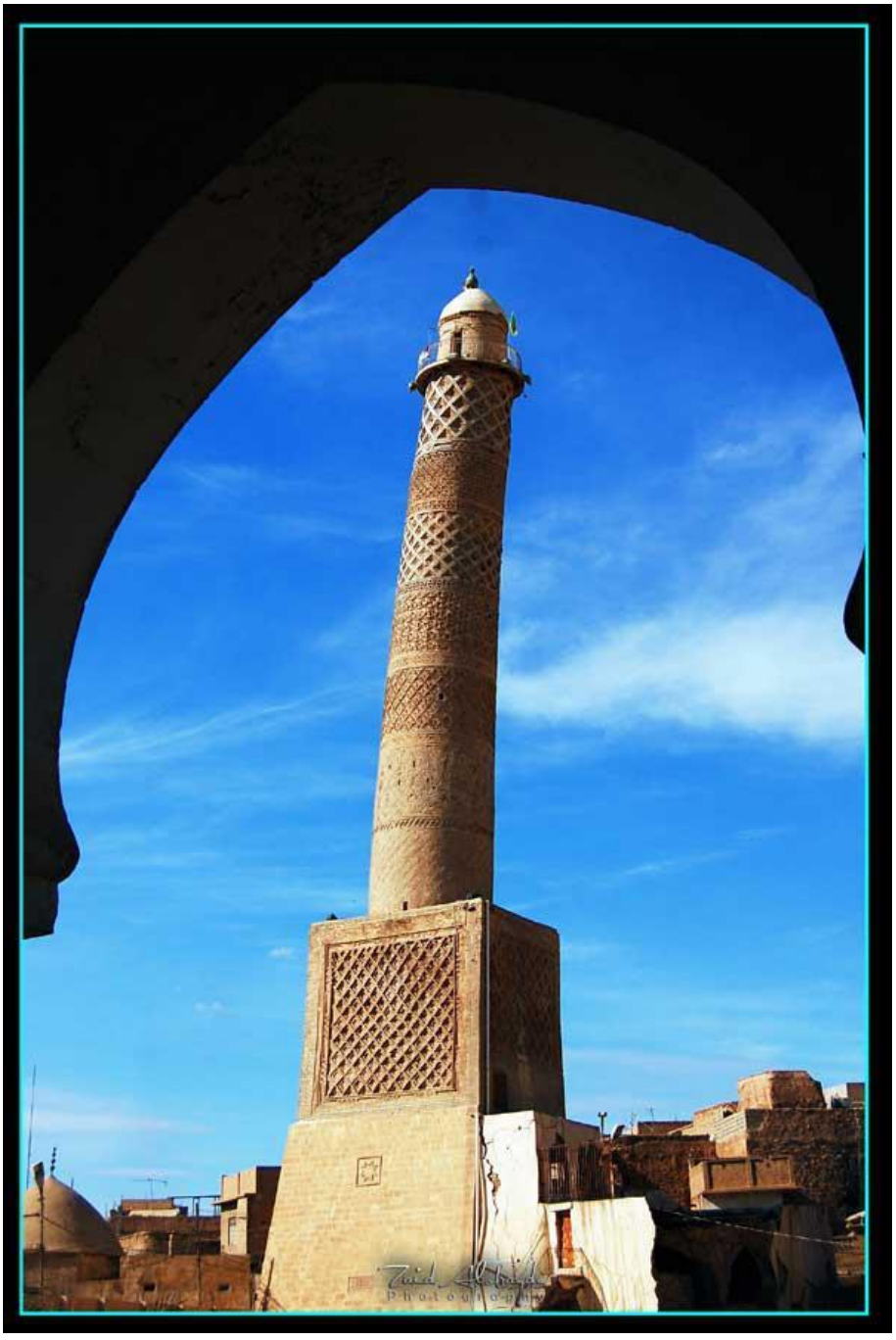

قاعدة مئذنة الجامع النوري

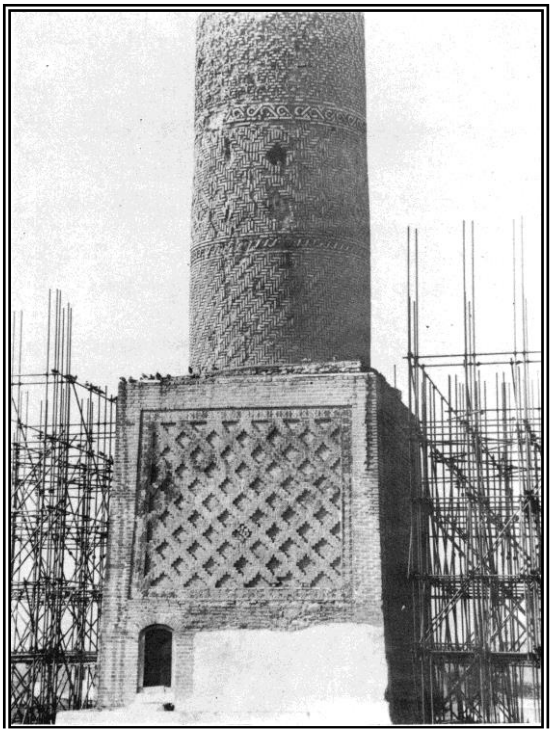

واجهة لبقايا مسجد ومدرسة أم الملك الصالح

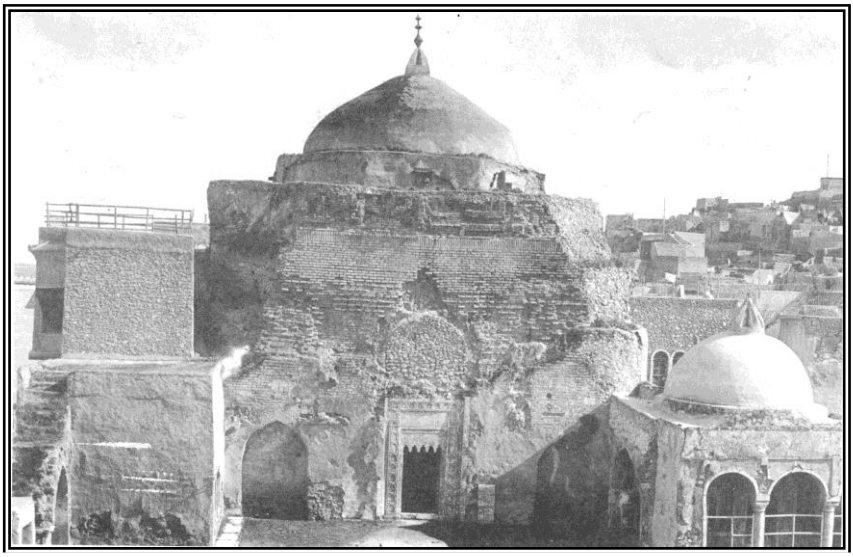

مخطط أرضي للجامع النوري

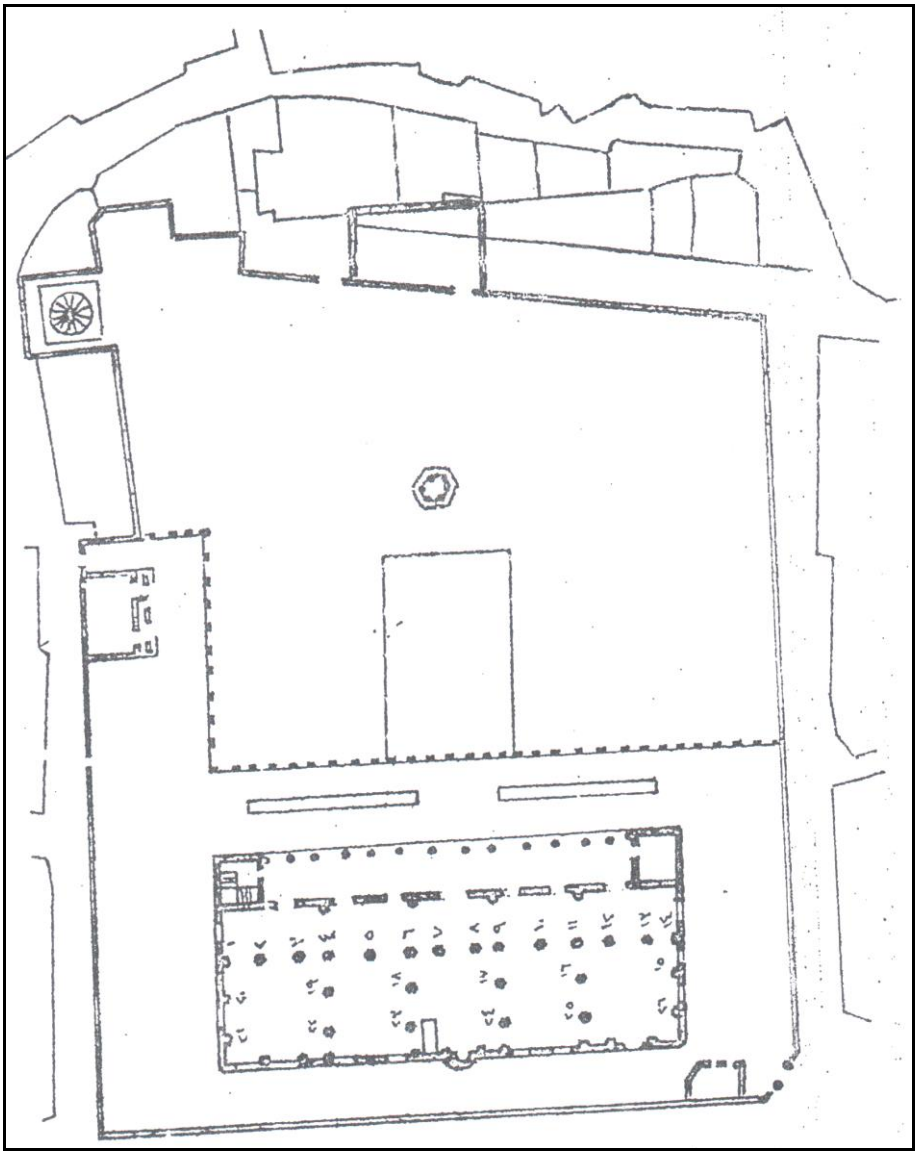

الهوامش

[1] كمال الدّين بن العديم: **بغية الطلب في تاريخ حلب** (بيروت – 2005). ص 525.

[2] سهيل زكار: **الموسوعة الشاملة في الحروب الصليبية**، الجزء الأول (دمشق -1995) .ص 45.

[3] حسين مؤنس :**نور الدين محمود سيرة مؤمن صادق**- الدار السعودية للنشر والتوزيع (جدة- 1987) ص 121

[4] علي محمد الصلابي :**نور الدين محمود زنكي شخصيته وعصره**، دار الأندلس الجديدة (القاهرة – 2008)، ص 525.

[5] الحموي: **معجم البلدان**، ص 224؛ ابن الاثير، عز الدين ابو الحسن: **الباهر في تاريخ الدولة الاتابكية في الموصل**، تحقيق: عبد القادر طليمات، دار اسعد، (القاهرة – 1963)، ص 77.

[6] ابن جبير، محمد بن احمد: **رحلة ابن جبير**، دار الكتب المصري، (بيروت- 1964)، ص 168.

[7] الشامي، عبد العال عبد المنعم: **"جغرافية المدن عند العرب"**، عالم الفكر، (الكويت – 1978)، ص 139.

[8] ابن جبير: الرحلة، ص 167.

[9] بيج، بيرتون: **البرج في العمارة الحربية**، ترجمة دائرة المعارف، دار الكتب، (بيروت – 1981)، ص 71؛ الحجاجي، ابراهيم محمد: **القلاع وتطور الفكرة الهندسية**، مجلة المنهل مجلد 48، ع 454، (الرياض – 1987) ص 49.

[10] ابن جبير: **رحلة ابن جبير**، دار الكتب المصري، ص 210.

[11] الجمعة: "**عمائر الموصل وخططها خلال رحلة ابن جبير**"، بحث مقدم إلى مركز دراسات الموصل، ضمن بحوث ندوة "الموصل في مدونات الرحالة العرب والأجانب"، على قاعة مركز الدراسات التركية، 1997/5/20، ص23–30.

[12] الدراجي: "عمارة القلاع وتخطيطها، ص50.

[13] ابن الشعار، كمال الدين أبي البركات المبارك: **"قلائد الجمان في فرائد شعراء هذا الزمان"** والمشهورة بعقود الجمان، جـ7، ورقة 369آ.

[14] ابن الشعار: المخطوط السابق، جـ7، ورقة 369آ.

[15] ابن الاثير: الباهر في عهد الاتابكة، ص364.

[16] ابن الاثير: الكامل، جـ11، ص147؛ ابن واصل، جمال الدين محمد بن سالم: **مفرج الكروب في أخبار بني أيوب**، تحقيق: جمال الدين الشيال، (مصر، المطبعة الاميرية، 1957)، جـ2، ص121.

[17] فيان موفق النعيمي: **معالجة المشكلات البيئية لعمائر الموصل خلال العصور الإسلامية**، أطروحة دكتوراه مقدمة الى مجلس كلية الآداب (الموصل – 2008) ص 19.

[18] الازدي، ابي زكريا زيد بن محمد بن اياس بن القاسم: **تاريخ الموصل**، تحقيق: علي حبيبة، (القاهرة – 1967)، ج2، ص27؛ البلاذري، احمد بن جابر بن يحيى: **فتوح البلدان**، تحقيق: رضوان محمد رضوان، دار الكتب، (بيروت – 1987)، ص ص228، 280.

[19] ابن الاثير: الباهر في عهد الاتابكة، ص 78.

[20] ابن الاثير: الباهر، ص78.

[21] ابن خلكان: **وفيات الأعيان**- تحقيق إحسان عباس –دار صادر- بيروت 1978 م.، جـ1، ص364.

[22] احمد، حسن: **الابواب هوية المكان ودليل المنزلة**، مقال منشور على شبكة الانترنيت، موقع www.sotakhr.com

[23] ابن الاثير: الكامل، جـ11، ص362.

[24] ابن جبير: رحلة ابن جبير، ص ص167–168

[25] وزيري: العمارة الاسلامية والبيئة، ص 136؛ عثمان، محمد عبد الستار: المدينة الاسلامية، ص 234.

[26] عثمان: المدينة الإسلامية، ص234.

[27] الألفي، أبو صالح: **الفن الإسلامي**، (ط2، لبنان، دار المعارف – لات)، ص122.

[28] الديوه جي: الموصل في العهد الاتابكي، ص132.

[29] الحموي: معجم البلدان، ج 2، ص 224؛ ابن الأثير: الباهر، ص 177.

[30] ابن الاثير: الباهر، ص 170.

[31] الديوه جي: جوامع الموصل، ص16، سلمان، عيسى: **"الجامع النوري"**، مجلة المدينة العربية، ع3– (1989)، ص77.

[32] رحلة ابن جبير، ص167.

[33] ابن الأثير: الباهر، ص170، أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين، جـ1، ص20؛ ابن الجوزي: مرآة الزمان في تاريخ الأعيان، جـ8، ص293.

34 ابن الأثير: الباهر، ص170؛ ابن أبي عذيبة، شهاب الدين احمد بن محمد بن عمر المقدسي الشافعي: **التاريخ الكبير**، مخطوط محفوظ في مكتبة الأوقاف الموصل، رقم السجل 4537.

35 عبو، عادل نجم: **"المنشآت المعمارية"**، موسوعة الموصل الحضارية (الموصل، مطبعة الموصل – 1992)، ج3، ص27.

36 عبو: "المنشآت المعمارية"، ص276؛ ينظر الشكل رقم (4).

37 الجمعة: محاريب مساجد الموصل، ص76.

38 رحلة ابن بطوطة، ص255.

39 ينظر: الشكل رقم (3).

40 الجمعة: "المآذن"، ص297؛ محمد، غازي رجب: **العمارة العربية في العصر الإسلامي** (بغداد، جامعة بغداد – 1989)، ص319.

41 العمايرة، علي حسين:**"العناصر الجمالية في عمارة المسجد (المأذنة)"**، ابحاث ندوة عمارة المساجد، جامعة الملك سعود، (الرياض – 1999) ص ص33–35.

42 الجمعة: " المآذن " موسوعة الموصل، مج3، ص 297–301.

43 المصدر نفسه، ج2، ص197.

44 ابن الاثير: الكامل، ج11، ص364.

45 جوامع الموصل، ص50–51

46 ابن جبير: الرحلة، ص 168.

47 ابن الأثير: الباهر، ص77.

48 ابن جبير: الرحلة، ص 168.

49 ابن خلكان: وفيات الأعيان، ج1، ص409.